﴿٢٥﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ

أشارت الآية الكريمة السابقة إلى عقاب الكافرين، وها هي ذى الآية الكريمة تشير إلى ثواب المؤمنين المتقين. والخطاب في الآية الكريمة «وبشر» يتجه في المقام الأول إلى المصطفى ﷺ البشير والنذير، والمعني: بشر الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان، وترجموا ما علموا إلى عمل صالح طيب يريدون به وجه ربهم الأعلى، بأن لهم يوم القيامة الذي آمنوا به، وهو من الغيب، وعملوا من أجله، بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار وأزواجاً مطهرة، وهم في الجنات خالدون.

اننا بصدد مجموعة من أهم مظاهر النعيم في الآخرة. وفي مقدمة ذلك الجنات التي تسر بجمالها الناظرين، ومعروف أن من أهم مقومات الجنات المياه التي تجري فيها، وقد أشارت الآية الكريمة إلى أنهار الجنة، وإلى كونها تجرى من تحت هذه الجنة. ومع أن المتبادر إلى الذهن أن هذه الأنهار في المقام الأول أنهار من ماء، فإنّ في القرآن الكريم إشارة إلى أنواع أخرى من الأنهار، أشار إليها قوله تعالى في سورة محمد ﷺ[1]: «مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم».

ومع تحقق السكن في الجنة والشراب يتحقق الطعام. وهؤلاء المؤمنون المتقون كلما رزقوا من الجنة من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل في الجنة، لأنهم يأتيهم الخدم والولدان بذلك الرزق متشابها شكلاً مختلفاً في اللون والرائحة والطعم.

---

(١) الآية ١٥.

ومن تمام النعيم في الجنة التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، أن يكون معهم أحباؤهم، ويأتي على رأس قائمة الأحباء في هذا الجو الجميل الزوجات، اللاتى يدخلن بإذن الله تعالى مع أزواجهن الجنات. وقد جاء في سورة الرعد[1] قوله تعالى: «جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» وهؤلاء الزوجات يكنّ في الجنة بإرادة الله تعالى خالصات من كل ما يتعارض مع هذه الصفة في الآية الكريمة «مطهرة» و «ظاهر اللفظ يقتضى أنهن مطهرات من كل ما يشين، لأن من طهره الله تعالى ووصفه بالتطهر كان في غاية النظافة والوضاءة»[2].

إن شيئاً من مثل هذا النعيم لو حصل في الدنيا لكان الخوف كبيراً منْ زواله. أما في الجنة فإن ذلك النعيم الذي يعجز البيان عن الاحاطة ببعضه وقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «ليس في الدنيا شيءٌ مما في الجنة سوى الأسماء»[3] فإنه خالد. ما أعظم فضل الله تعالى على العباد. «إن الله لذ وفضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون»[4].

---

(١) الآيـة ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) البحر المحيـط ١ / ١١٨ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٢٠٦ .
(٤) سـورة غـافـر ٦١ .

﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ

أصل الاستحياء الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح. وهذا محال على الله تعالى[١] واختلف المتأولون في معنى يستحيي في هذه الآية: فقيل لا يخشى ورجحه الطبري. وفي التنزيل: وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه بمعنى تستحيي. وقال غيره: لا يترك. وقيل: لا يمتنع[٢] وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: جاءت أم سليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله: إن الله لا يستحيي من الحق. المعنى لا يؤمر بالحياء فيه ولا يمتنع من ذكره[٣].

والبعوضة فعولة من بعَضَ إذا قطع اللحم... والبعوض البق. الواحدة بعوضة سميت بذلك لصغرها. قاله الجوهري وغيره[٤].

معنى فوقها والله أعلم، مادونها أي أنها فوقها في الصغر... وقال قتادة وابن جريج: المعنى في الكبر[٥] والفسق أصله في كلام العرب الخروج عن الشيء يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها... والفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله عز وجل. فقد يقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان[٦].

---

(١) تفسير القرطبي ص ٢٠٨.
(٢) تفسير القرطبي ص ٢٠٨.
(٣) تفسير القرطبي ص ٢٠٨ وانظر البحرُ المحيط ١/١٢١.
(٤) تفسير القرطبي ص ٢٠٩ وأنظر الكشاف ١/٢٠٥ والبحر المحيط ١/١٢٣.
(٥) تفسير القرطبي ص ٢٠٩ والكشاف ١/٢٠٥.
(٦) تفسير القرطبي ص ٢١٠.

ومناسبة هذه الآية ظاهرة إذ قد جرى قبل ذكر المثل بالمستوقد والصيب ونزل التمثيل بالعنكبوت والذباب فأنكر ذلك الجهلة وأهل العناد واستغربوا ما ليس بمستغرب ولا منكر إذ التمثيل يكشف المعنى ويوضح المطلوب[1].

سبب النزول

قال ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل والفرّاء نزلت في اليهود لما ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه بالعنكبوت والذبلب والتراب والحجارة وغير ذلك مما يستحقر ويطرح. قالوا: إن الله أعز وأعظم من أن يضرب الأمثال بمثل هذه المحقّرات، فرد الله عليهم بهذه الآية. وقال الحسن ومجاهد والسدى وغيرهم: نزلت في المنافقين قالوا: لما ضرب الله تعالى المثل بالمستوقد والصيب قالوا: الله أعلى وأعظم أن يضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء التي لا بال لها. فرد الله عليهم بهذه الآية. وقيل نزلت في المشركين. والكل محتمل، إذ اشتملت على نقض العهد وهو من صفة اليهود، لأن الخطاب بوفاء العهد إنما هو لبني اسرائيل. وعلى الكافرين والذين في قلوبهم مرض وهم المشركون، والمنافقون وكلهم كانوا في ايذائه ﷺ متوافقين[2].

والآية الكريمة يبين فيها رب العزة أنه لا يخشى أن يضرب في القرآن الكريم المثل بالبعوضة، المعروفة بصغر حجمها واشمئزاز النفوس منها، وبغير البعوضة مما يكبرها حجماً. لأن العبرة في المثل تكمن فيما ضرب المثل له، مما ينجم عنه قرب المعنى ووضوح الصورة وكشف الغامض وبيان المشكل. فعلى سبيل المثال، إذا كانت الآلهة التي يعبد المشركون عاجزة عن دفع الضر عن ذواتها فضلاً عن جلب النفع، بالنسبة لذواتها أو لعابديها، فإن هذه الآلهة لهوانها يناسبها أن يضرب المثل من أجلها بالذباب، الصغير الحجم الذي تعافه النفس لهوانه والذي تعجز الآلهة المزعومة مجتمعة عن خلق ذبابة واحدة من جنسه، والذي لو سلب شيئاً من طعام أو شراب لعجز المعبودون

---

(١) البحر المحيط ١ / ١٢٠.
(٢) البحر المحيط ١ / ١٢٠.

والعابدون لهم، عن استنقاذه منه. ان ضرب المثل بالذباب هو الذي يتناسب مع الآلهة المزعومة العاجزة وهو الذي تستحقه لهوان كل منهما. ولهذا كان في القرآن الكريم الأمثلة من هذا النوع.

وإن المؤمنين المتقين تجاه هذه الأمثال يعلمون أنها الحق من ربهم جل وعلا، وقد قال تعالى في سورة العنكبوت[1] : «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالِمون» ويلاحظ أن هذه الآية الكريمة من سورة العنكبوت جاءت بعد ضرب الله مثل الذي يعبدون من دون الله بالعنكبوت التي اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت. قال تعالى[2] : «مثل الذي اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون».

أما الكافرون فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ ويلاحظ أن رب العزة أخبر عن المؤمنين بالعلم لأنه الجزم المطابق لدليل. وأخبر عن الكافرين بالقول. وهو اللفظ الجاري على اللسان[3] وهذا الاستفهام الانكاري من قبل الذين كفروا من ذات الوادى الذى استقوا منه قولهم السابق الذي نَزَلَتْ من أجله الآية الكريمة. وإن الجواب على استفهام الكافرين يجيء في الآية الكريمة : «يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين» فهذه الأمثال القرآنية يضل الله تعالى بها كثيراً من الناس الكافرين الذين ينصرفون عن آيات الله تعالى فيصرف الله تعالى قلوبهم. ويهدى الله تعالى بها كثيراً من المؤمنين الذين اهتدوا فزادهم الله تعالى إيماناً إلى إيمانهم وهدى إلى هداهم. وما يضل الله تعالى بهذا المثل أو ذاك إلاّ الفاسقين الخارجين عن الصراط المستقيم. أما الذين يسيرون في الصراط المستقيم فإنهم يعقلون تلك الأمثال، ويؤمنون بها ويهتدون، فيزيدهم الله تعالى إيماناً وهدى وتقوى.

---

(١) الآيـة ٤٣ .

(٢) سورة العنكبوت ٤١ .

(٣) البحر المحيـط ١/ ١٢٤ .

﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ

النقض : إفساد ما أبرمته من بناء أو حبل أو عهد[1] واختلف الناس في تعيين هذا العهد فقيل: هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه عما نهاهم عنه عن معصيته في كتبه على ألسنة رسله ونقضهم ذلك ترك العمل به . وقيل : بل نصب الأدلة على وحدانيته بالسماوات والأرض وسائر الصنعة ، هو بمنزلة العهد . ونقضهم ترك النظر في ذلك . وقيل: هو ما عهده إلى من أوتى الكتاب أن يبينوا نبوة محمد عليه السّلام ولا يكتموا أمره ، فالآية على هذا في أهل الكتاب قال أبو اسحاق الزجاج : عهده جل وعز ما أخذه على النبيين ومن اتبّعهم ألا يكفروا بالنبي ﷺ . ودليل ذلك: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين إلى قوله تعالى: وأخذتم على ذلكم اصرى ، أى عهدى .

قلت : وظاهر ما قبل وما بعد يدل على أنها في الكفار[2]

والميثاق العهد المؤكد باليمين[3] والقطع معروف . والمصدر – في الرحم– القطيعة[4] واختلف في الشيء الذى أمر بوصله . يرى جمهور العلماء أن المراد بذلك دين الله وعبادته في الأرض وإقامة شرائعه وحفظ حدوده فهي عامة في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل والرحم جزء من هذا[5] .

هذه الآية الكريمة تشير إلى بعض صفات الفاسقين . وهي تسير وفق تدرج لطيف من ناحيتين . الناحية الأولى حينما يتم التحول من الخاص إلى العام إلى الأعم . فالخاص هو

---

(١) تفسير القرطبي ص ٢١١ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٢١١ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٢١١ والبحر المحيط ١/ ١١٩ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٢١٢ .
(٥) انظر تفسير القرطبي ص ٢١٢ .

العهد بين الله تعالى وبين عباده . والعام قطع ما أمر الله به أن يوصل . والأعم الافساد في الأرض، وهو يشمل كل أنواع الفساد . والناحية الثانية حينما نتبين أن هذا التحول من الخاص إلى العام إلى الأعم قد اقترن به التحول من أكثر الأمور أهمية إلى الذي يليه درجة وهكذا . فلا شك أن أهم الأمور الثلاثة عهد الله تعالى من بعد ميثاقه والذى يليه أهمية قطع ما أمر الله به أن يوصل، وأخيراً يجيء الافساد في الأرض. حقاً إن قطع ما أمر الله به أن يوصل يبنى على نقض عهد الله من بعد ميثاقه ، والإفساد في الأرض يبنى على الأمرين السابقين ، فكأن التالي يتضمن السابق، ولكن مع ذلك يظل التدرج وفق ما بينا واضحاً .

فهؤلاء الكافرون ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض. ولا شك أن الفاسقين الذين تجتمع فيهم هذه الصفات السيئة ، كلها أو بعضها هم الخاسرون ، الذين يستحقون النار وبئس القرار .

﴿٢٨﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

تبينا من ذى قبل أن الذين كفروا يقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً مظهراً من مظاهر الضلال الذى هم سادرون فيه فاستحقوا أن يلقبوا بالفاسقين وقد أشار السياق إلى أهم صفات هؤلاء الفاسقين الخاسرين . والآية الكريمة التي نحن بصددها تسأل – في تعجب وانكار – الكافرين الذين يتجه إليهم الحديث مباشرة بعد أن كان الكلام عن الغائبين ، وهذا من الالتفات الذى يشد الانتباه في ذاته ولتحول الضمير إلى حالة أقوى هي حالة الخطاب ، تسأل الكافرين : كيف تكفرون بالله ؟ والسؤال بكيف عن الحال وبالهمزة عن الذات ، وفي الانكار على الحال انكار ضمني على الذات فالمراد كيف يكون منكم الكفر أساساً ؟ . ثم ينص السياق على خلق الله تعالى الخلق ، « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ... » وسبق أن لاحظنا في الآية الكريمة الحادية والعشرين التي يبدأ بها الحديث الموجه لكل الناس أن النعمة التي نص عليها السياق هي نعمة الخلق . مع ملاحظة أن الآية الكريمة التي نحن بصددها تتحدث عن هذه النعمة من زاوية الإماتة مرتين والإحياء مرتين ، على غرار حديث الآية الكريمة الحادية عشرة من سورة غافر قال تعالى : « قالوا ربنا امتنا اثنتين وأحييتنا أثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » .

والمراد بالموت الأول المراحل المتعلقة بالنطفة في الأصلاب وفي الأرحام إلى أن تبدأ مرحلة الحياة الأولى بنفخ الروح ، وتستمر الحياة في الأرحام وخارجها إلى أن تبدأ مرحلة الموت الثانية التي تستمر بدورها إلى البعث ، وهو المراد بالحياة الثانية .

وتنص الآية الكريمة على غاية الغايات « ثم إليه ترجعون » والمراد بالرجوع إلى الله تعالى من أجل فصل الحساب ، فالجزاء ثواباً أو عقاباً .

ويلاحظ أننا بصدد حرفين للعطف الفاء الذي يدل على الترتيب مع التعقيب وثم

الذي يدل على الترتيب مع التراخي. وللفاء دورها في الدلالة على أن «الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ. وأما الموت. فقد تراخى عن الإحياء. والإحياء الثانى كذلك تراخى عن الموت إن «أريد به النشور تراخياً ظاهراً. وإن أريد به إحياء القبر فمنه يكتسب العلم يتراخيه. والرجوع إلى الجزاء أيضاً متراخ عن النشور»[1] ولهذا جاءت ثم مرات ثلاثاً بعد الفاء التي جاءت مرة واحدة.

إن واجب كل العباد أن يؤمنوا بالله تعالى ويصدقوا رسوله الذى أنزل عليه القرآن المجيد، وأن يوقنوا بأن بعد الموت بعثاً فنشوراً فحساباً، فثواباً أو عقاباً وأن يوقنوا بأن القادر على الإحياء إيجاداً بعد الموت بمعنى العدم قادر على الإحياء عودة بعد الموت ومغادرة هذه الحياة الأولى.

---

(١) الكشاف ١ / ٢٠٨.

﴿٢٩﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ

بعد أن أشارت الآية الكريمة السابقة إلى خلق الله تعالى العباد ، أشارت هذه الآية الكريمة إلى خلق الله تعالى من أجل هؤلاء العباد ما في الأرض جميعاً . وقد أشارت سورة الجاثية إلى تسخير الله تعالى ما في السماوات وما في الأرض للعباد . قال عز من قائل[١] : « وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وقد أشارت الآية الكريمة إلى استواء الله تعالى إلى السماء إثْر الحديث عن خلق ما في الأرض جميعاً . قال تعالى : «ثم استوى إلى السماء» وقد قيل إن ثم هنا لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر في نفسه[٢] ويقول الزمخشري[٣] : « ثم ههنا لما بين الخلقين من التفاوت وفضل خلق السماوات على خلق الأرض لا للتراخي في الوقت كقوله : « ثم كان من الذين آمنوا » .

والاستواء في اللغة الارتفاع والعلو على الشيء[٤] والاعتدال والاستقامة[٥] .

والمعنى : قصد إليها بإرادته ومشيئته[٦] وقد قال الإمام مالك رحمه الله تعالى[٧] : الاستواء غير مجهول . والكيف غير معقول . والإيمان به واجب . والسؤال عنه بدعة .

---

(١) سورة الجاثية ١٣ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٢١٧ .
(٣) الكشاف ١/٢٠٩ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٢١٧ .
(٥) الكشاف ١/٢٠٩ والبحر المحيط ١/١٢٠ .
(٦) الكشاف ١/٢٠٩ .
(٧) تفسير القرطبي ص ٢١٧ .

وقد نصت الآية الكريمة على أن السماوات سبع. وختمت بالاشارة إلى علم الله تعالى المحيط بكل شيء. «وقد وصف الله تعالى نفسه بعالم وعليم وعلام. وهذان للمبالغة »[1].

وبشأن خلق الله تعالى للسماوات والأرض، سبق لنا أثناء دراستنا المتأملة لسورة النازعات أن نظرنا إلى هذه الآيات الكريمات، قال تعالى: « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها » وإلى هذه الآيات الكريمات من سورة فصلت[2] قال تعالى: « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً، ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحي في كل سماءٍ أمرها. وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً. ذلك تقدير العزيز العليم ».

وقد كانت نظرتنا وفق رأي ابن عباس في ذلك الترتيب. فقد جاء عنه رضى الله عنه القول[3] إن الله تعالى: « خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء. ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات. ثم دحا الأرض بعد ذلك. فذلك قوله: والأرض بعد ذلك »[4].

---

(١) البحر المحيط ١ / ١٣٦.

(٢) الآيات ٩ – ١٢.

(٣) تفسير الطبري ٣٠/٢٩.

(٤) أنظر تأملات في سورة النازعات ص ٨٦.

﴿٣٠﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

بعد أن تحدثت السورة الكريمة في مطلعها عن المؤمنين تحدثت عن الكافرين بنوعيهم الذين يظهرون الكفر والذين يبطنون الكفر ، وهما الكافرون والمنافقون على التوالي . ثم دعت السورة الكريمة الناس جميعاً إلى عبادة الله تعالى لأنها الطريق الموصل إلى مرتبة التقوى . وقد ركزت السورة على الخلق ، خلقهم هم أنفسهم وخلق ما في الأرض من أجلهم . وبعد أن إشارت السورة إلى استواء الله تعالى السماء وتسويته جل وعلا لها سبع سماوات يتحول السياق إلى ذكر بداية خلق الإنسان . والآية الكريمة التي نحن بصددها تبدأ قصة خلق الإنسان .

ونتبين في صدر الآية الكريمة : «وإذ قال ربك» منزلة محمد بن عبدالله ﷺ الرفيعة عند بارئه . إذ المعنى وأذكر يا محمد إذ قال ربك . والمعروف أن لفظ الرب إنما يذكر حينما يكون الجو عابقاً بشذا المحبة والحنان . وها هو ذا لفظ الرب يلحق به ضمير المخاطب العائد إلى المصطفى ﷺ . ويمكن أن يستفاد من الآية الكريمة درس عظيم عماده الشورى . إن رب العزة الذي لايسأل عما يفعل وهم يسألون يبين لملائكته الأطهار الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون بأنه جل وعلا جاعل في الأرض خليفة يخلف الملائكة الذين كانوا يسكنون الأرض فيما يقال ، « ويجوز أن يريد خليفة منى لأن آدم كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبي »[1] .

وبما أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فقد علموا بإلهامٍ من الله تعالى لهم أن إيجاد خلق آخر يسكن الأرض ، يفهم منه إنهم يختلفون عن الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم لأنهم مفردو الإرادة ، وعليه فالاختلاف ينسحب إلى

---

(١) الكشاف ١/٢٠٩ .

ثنائية الإرادة بمعنى أنهم يصح أن يصدر عنهم كل من الخير والشر. وقد هال الملائكة أن يعصى الله تعالى ولذا اتجه كلا مهم إلى أهم مظاهر العصيان، الإفساد في الأرض عموماً وسفك الدماء بمعنى صَبِّها وسكبها ظلماً وعدواناً. وبما أن الملائكة المفردى الإرادة لا يصدر عنهم إلا الخير ففي مقابل تنبيههم إلى معلمين بارزين من معالم العصيان، نبهوا إلى معلمين بارزين من مظاهر طاعتهم لله تعالى: «قالوا أتجعل من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟».

إن المعلمين المهمين لعبادة الملائكة لله تعالى يتجلى في تسبيحهم بحمد الله تعالى بمعنى تنزيههم له جل وعلا عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته جل وعلا: «أي نقول: سبحان الله وبحمده»[1]: «والتسبيح في كلا مهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم»[2] كما يتجلى في تقديسهم له جل وعلا. «ونقدس لك أي نعظمك ونمجدك ونطهر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون. قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما»[3] فالقدس الطهر من غير خلاف[4] والتقديس التطهير ومنه بيت المقدس والأرض المقدسة[5].

ويتبين من جواب رب العزة رداً على الملائكة تكريم الله تعالى لجنس الإنسان وقد قال عز من قائل[6]: «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً» «قال إني أعلم ما لا تعلمون» إن رب العزة ينبه الملائكة إلى أن المخلوق الذي سيجعله خليفة في الأرض سيكون منه الكثير والكثير من الأعمال الصالحة الطيبة. فهنالك المرسلون، وهنالك الأنبياء، وهنالك

---

(١) الجلالين.
(٢) تفسير القرطبي ص ٢٣٦.
(٣) تفسير القرطبي ص ٢٣٧.
(٤) تفسير القرطبي ص ٢٣٧.
(٥) البحر المحيط ١/١٣٨.
(٦) سورة الاسراء ٧٠.

الصديقون والشهداء والصاحون . وقد قال عز من قائل[1] : «ومن يطع الله والرسول فأولئك من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من الله وكفي بالله عليماً » .

إن رب العزة يخاطب الملائكة الأطهار في حق الإنسان بالقول : « إن أعلم ما لا تعلمون » أليس الأولى بهذا الإنسان أن يكون عند حسن ظن ربه جل وعلا به . إن عماد السير في الصراط المستقيم التمسك بتعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين .

---

(١) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ .

﴿٣١﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ

بعد أن كان في الآية الكريمة السابقة تعريض من رب العزة للملائكة بكون علمهم ناقصاً، حيث كان منهم بشأن الخليفة الذي سيجعله الله تعالى في الأرض حدس موافق لبعض الواقع، وليس لكل الواقع، حيث قد أغفل الجانب الإيجابي الاصلاحي لهذا المخلوق، كان في هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها تصريح بعلمهم الناقص. وها هو ذا رب العزة يعلّم آدم عليه السلام أسماء المسميات كلها وبعد وعي آدم عليه السلام الكامل لتلك الأسماء، عرض رب العزة تلك المسميات، وفيها من يعقل، على الملائكة. فقال رب العزة للملائكة أنبئوني بأسماء هذه المسميات، إن كنتم تعتقدون أنكم صادقون في علمكم الذي بنيتم عليه حدسكم بكون من سأجعله خليفة في الأرض سيفسد فيها ويسفك الدماء، أو يغلب عليه جانب الإفساد وسفك الدماء. وبطبيعة الحال لم يعلم الملائكة أسماء المسميات لأن الله تعالى لم يعلمهم تلك الأسماء، وفي طلب رب العزة من الملائكة الإنباء بأسماء المسميات وفى رد الملائكة تعريض بالملائكة بكون علمهم محدوداً، واعتراف منهم بقصور علمهم. وفى تعليم رب العزة آدم عليه السلام الأسماء كلها تنبيه إلى نعمة من أكبر نعمه جل وعلا على جنس الانسان ممثلاً في أبينا آدم عليه السلام، وتنبيه إلى ميزة كبيرة لهذا الانسان. أما النعمة الكبيرة فهي نعمة العلم التي امتن بها الله تعالى العليم بكل شيء على عباده. وأما الميزة الكبيرة فهي استعداد هذا الانسان لأن يتعلم. نسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع إنه على كل شيء قدير.

﴿٣٢﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

طلب رب العزة من الملائكة أن ينبئوه جل وعلا بأسماء المسميات وهذه الآية الكريمة تمثل جواب الملائكة. فبما أنهم لا يعلمون ألا ما علمهم الله تعالى ، وأسماء المسميات مما لم يعلمهم الله تعالى إياه ، وبما أن علم ما لم يعلموا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ، لذا كان ابتداء جوابهم متضمناً تنزيهه جل وعلا أن يشركه في علم الغيب أحد سواه. « قالوا سبحانك » أي : تنزيهاً لك عن أن يعلم الغيب أحد سواك. وهذا جوابهم عن قوله : أنبئوني[1] وهو موطىء للتصريح على لسان الملائكة بعدم العلم باستثناء ما علمهم الله تعالى إياه : « ألا ما علمتنا » ويتبين من القول « سبحانك » حسن الأدب. ويتبين من القول « لا علم لنا ألا ما علمتنا » حسن الاعتذار عما بدر منهم من قبل بشأن النص على الفساد وسفك الدماء فقط في حق الإنسان الذي يصدر منه الخير كذلك.

وفي مقابل نفي العلم عن أنفسهم أثبتوا مطلق العلم له جلا وعلا. وأردفوا العلم بالحكمة ، فقد تبين لهم شيء من حكمة جعل الله تعالى خليفة في الأرض حينما ينبئهم آدم بَعْدُ ، بأسماء المسميات. إن الحكمة ثمرة العلم ولذا جاءت الاشارة إليها بعد الاشارة إلى العلم. ونحن وراء ذلك تجاه صيغتي المبالغة عليم حكيم والمراد أنه لا يخرج شيء عن علمه وحكمته جل وعلا.

---

(١) تفسير القرطبي ص ٢٤٣ .

﴿٣٣﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ

إن الملائكة المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يعلنون أنهم لا علم لهم ألا ما علمهم الله تعالى . وفي هذا درس بليغ للعباد وللعلماء حينما لا يعرف المرء ما يسأل عنه يقول : الله أعلم. وهنا يأمر رب العزة آدم عليه السلام أن ينبئهم بأسماء المسميات . فلما أنبأهم آدم عليه السلام الذي علمه الله تعالى ما لم يعلم ، جاء في الآية الكريمة في أسلوب التقرير قوله تعالى مخاطباً الملائكة : «ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» . ومن مظاهر علم الله تعالى الذي ليس للزمن علاقة به البته ، استعداد آدم عليه السلام كي يتعلم ويكون أستاذاً للملائكة . وإن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. ولا يخفي عليه شيء في نفوس المخلوقات . ومن هذه المخلوقات الملائكة التي يعلم الله تعالى كل ما تبدى وتعلن وكل ما تكتم وتخفى .

ويستفاد من القول « لكم » الذي لم يستغن السياق عنه ، تنبيه هؤلاء الملائكة إلى أن القول موجه إليهم في المقام الأول .

﴿٣٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ

مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الله تعالى لما شرف آدم بفضيلة العلم وجعله معلماً للملائكة وهم مستفيدون منه مع قولهم السابق: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، أراد أن يكرم هذا الذي استخلفه بأن يسجد له الملائكة ليظهر بذلك مزية العلم على مزية العبادة(١).

وإذا قلنا أي واذكر إذ قلنا. وفي التعبير حيث قد جاء من ذى قبل: وإذ قال ربك للملائكة. ثم إننا بصدد نون العظمة، لتعدد صفاته جل وعلا الحميدة ومواهبه الجزيلة(٢) إن رب العزة يأمر الملائكة بأن يسجدوا لآدم عليه السلام، فيمتثلوا للأمر إلّا ابليس الذي كان من الملائكة على قول الجمهور(٣) والمراد بالسجود سجود التكرمة والتحية وهو قول الجمهور(٤).

إن ابليس أبى بمعنى امتنع، واستكبر بمعنى تكبر(٥) والاستكبار بمعنى الاستعظام فكأنه كره السجود في حقه، واستعظمه في حق آدم. فكان ترك السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته(٦).

ويلاحظ أن ابليس بعصيانه ربه جل وعلا بسبب كبره وحسده آدم عليه السلام كان من الكافرين. بينما عبر الملائكة المقربون عن منتهى طاعتهم لله تعالى وامتثالهم لأوامره. فلا زلنا كما كنا في أول السورة الكريمة بصدد الفريقين الرئيسيين المتقابلين في الصفات المؤمنين والكافرين.

---

(١) البحر المحيط ١ / ١٥١.
(٢) البحر المحيط ١/١٥٢.
(٣) تفسير القرطبي ص ٢٥١.
(٤) البحر المحيط ١/١٥٢.
(٥) البحر المحيط ١/١٥١.
(٦) تفسير القرطبي ص ٢٥٢.

﴿٣٥﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ

الرغد في اللغة الكثير الذي لا يُعَنّيك ويقال : أرغد القوم إذا وقعوا في خصب وسعه(١) والرغد العيش الدارّ النهي الذي لا عناء فيه(٢) رغدا نعت لمصدر محذوف أي أكلا رغدا. قال ابن كيسان: ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال(٣) وحيث للمكان المبهم أي أيّ مكان من الجنة(٤) والشجره ما كان على ساق. والنجم ما نجم وانبسط على الأرض ليس له ساق(٥) .

مناسبة الآية الكريمة لما سبقها أن الله تعالى لما شرف آدم برتبة العلم وباسجاد الملائكة له امتن عليه بأن أسكنه الجنة التي هي دار النعيم، وأباح له جميع ما فيها إلا الشجرة(٦) .

جملة قلنا معطوفة على الجملة المماثلة في الآية الكريمة السابقة، ولا زلنا بصدد نون العظمة. إن رب العزة ينادى آدم عليه السلام باسمه كي يوجه كل اهتمامه إلى ما يقال. وها هو ذا رب العزة يأمره هو وزوجه حواء ، أن يتخذا من الجنة سكناً لهما ومستقراً ، وأن يأكلا من حيث شاءا من الجنة أكلا رغدا كثيراً لا عناء فيه ولا حظر عليه. باستثناء شجرة واحدة ، الله تعالى أعلم ما هي ، فنهاهما عن مجرد الاقتراب منها فضلاً عن الأكل منها. وقد بين لهما ربهما جل وعلا أنهما إن عصيا الله تعالى فأكلا من الشجرة فإنهما سيكونان من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم.

---

(١) تفسير القرطبي ص ٢٦٥ وانظر البحر المحيط ١/١٥٧.
(٢) تفسير القرطبي ص ٢٥٩ وانظر البحر المحيط ١/١٥٥.
(٣) تفسير القرطبي ص ٢٦٤ .
(٤) الكشاف ١/٢١١ وانظر البحر المحيط ١/١٥٥ .
(٥) البحر المحيط ١/١٥٥ . (٦) البحر المحيط ١/١٥٥ .

وحينما نتبين أن رب العزة قد قال للملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة، والمراد آدم عليه السلام وذريته من بعده، ومعروف أن آدم عليه السلام إنما خلق في السماء، وأن الجنة في السماء، فذلك معناه أن آدم عليه السلام سيهبط حتماً إلى الأرض وقتاً من الأوقات، حينما نتبين كل ذلك ندرك الحكمة من استثناء الشجرة.

ويستفاد من هبوط آدم عليه السلام وزوجه حواء من الجنة إلى الأرض بسبب ارتكاب ما نهيا عنه، أن ما نهى الله تعالى عنه ينبغي أن ينتهي عنه العباد، وإلا استحقوا العقوبة من الله تعالى العزيز الجبار المتكبر.

﴿٣٦﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ

فأزلهما من الزلة وهي الخطيئة ، أي استزلهما وأوقعهما فيها[١] وقيل إن معنى أزلهما من زل عن المكان إذا تنحى ... قال امرؤ القيس :

يزل الغلام الخِفُّ عن صهواته ويُلوى بأثواب العنيف المثقّل

وقال أيضاً :

كميتٌ يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصَّفْواء بالمتنزَّل[٢]

والهبوط : النزول من فوق إلى أسفل[٣] والصحيح أن الخطاب لآدم وحواء والمراد هما وذريتهما لأنهما لما كانا أصل الانس ومتشعبهم جعلاً كأنهما الانس كلهم . والدليل عليه قوله : قال اهبطاً منها جميعاً بعضكم لبعض عدو . ويدل على ذلك قوله : فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[٤] ومستقر موضع استقرار[٥] والمتاع ما يستمتع به من أكل ولبس وحياة وحديث وأنس وغير ذلك[٦] .

تقرر الآية الكريمة أن ابليس اللعين استطاع أن يُنَحّي آدم وحواء عن الجنة فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم وذلك بتضليلهما واغوائهما بالأكل من الشجرة . وقد جاء في سورة الاعراف قوله تعالى[٧] : «فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوء اتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا

---

(١) تفسير القرطبي ص ٢٦٥ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٢٦٦ والمعنى يزلق اللبد عن وسط ظهره.
(٣) تفسير القرطبي ص ٢٧٢ .
(٤) الكشاف ١/ ٢١١ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٢٧٣ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٢٧٤ .
(٧) الآيات ٢٠ – ٢٥ .

من الخالدين. وقاسمهما[1] إني لكما لمن الناصحين. فدلّاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوء اتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون».

وواضح أن آيات سورة الاعراف تكمل بعض الجوانب التي تركتها آيات سورة البقرة حيث قد تم التحول السريع إلى أمره جل وعلا آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض وإعلامهما بكون ذريتهما سيكون بعضهم لبعض عدواً، وإلى جعل الله تعالى الأرض موضع استقرار واستمتاع للبشر إلى أن يتوفاهم الله تعالى.

---

(١) أي اقسم لهما بالله.

﴿٣٧﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ

معنى تلقى الكلمة استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها[1] وقال الشماخ:

إذا ما رايـــة رفـــعت لمجـــد تلقـاهـــا عرابـــة باليمين[2]

إن آدم عليه السلام وقد عصى ربه جل وعلا وغوى، قد شملته رحمة البر الرحيم التي وسعت كل شيء. وإن رب العزة ليلقن آدم عليه السلام الكلمات التي يقولها في توبته إلى الله تعالى وانابته إليه جل وعلا. قال ابن عباس والحسن وابن جبير ومجاهد وابن كعب وعطاء الخراساني والضحاك وعبيد بن عمير وابن زيد هي: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين[3] وتفضل رب العزة على آدم عليه السلام فقبل توبته «وأفرده بالإخبار عنه بالتوبة عليه، وإن كانت زوجته مشاركة له في الأمر بالسكنى والنهى عن قربان الشجرة وتلقي الكلمات والتوبة لأنه هو المواجه بالأمر والنهي»[4].

إنّ الهام الله تعالى آدم عليه السلام الكلمات من مظاهر رحمة الله تعالى بآدم عليه السلام. وإلى هذه الرحمة أشارت لفظة الرحيم، وقد سبقها لفظة التواب، لمناسبة فتاب عليه ولحسن ختام الفاصلة بقوله: الرحيم[5] والتواب والرحيم من أسمائه جل وعلا الحسنى. «وهما من الأمثلة التي صيغت للمبالغة. وهذا كله ترغيب من الله تعالى للعبد في التوبة والرجوع إلى الطاعة واطماع في عفوه تعالى واحسانه لمن تاب إليه»[6].

---

(١) الكشاف ١/٢١١ وانظر تفسير القرطبي ص ٢٧٥ والبحر المحيط ١/١٦٠، ١٦٥.
(٢) البحر المحيط ١/١٦٠.
(٣) البحر المحيط ١/١٦٥ وتفسير القرطبي ص ٢٧٦.
(٤) البحر المحيط ١/١٦٦.
(٥) انظر البحر المحيط ١/١٦٧.
(٦) البحر المحيط ١/١٦٧.

﴿٣٨﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

الخوف استشعار غم لفقد مطلوب. والحزن استشعار غم لفوات محبوب[١] والخوف هو الذعر ولا يكون إلا في المستقبل[٢] والحُزْن والحَزَن ضد السرور. ولا يكون إلا على ماض[٣].

تكرر الحديث عن الهبوط من الجنة إلى الأرض لاختلاف المتعلق. ففي المرة الأولى ارتبط بالهبوط تقرير العداوة. وفي هذه المرة ارتبط بالهبوط مجيء الهدى، بمعنى الرسل والآيات التي يختصهم الله تعالى بها وقد أشير إلى الذين كفروا في الآية الكريمة التالية بالقول: «والذين كفروا وكذبوا بآياتنا» «وإن شرطية. وما زائدة بعد للتوكيد. والنون في يأتينكم نون التوكيد»[٤]. قال سيبوية: الشرط الثانى وجوابه هما جواب الأول[٥] ويقول أبو حيان[٦]: «ولا يتعين عندى أن تكون من شرطية. بل يجوز أن تكون موصولة، بل يترجح ذلك لقوله في قسيمه: «والذين كفروا وكذبوا»، فأتى به مولاً. ويكون قوله: فلا خوف جملة في موضع الخبر» «منى متعلق بيأتينكم. وهذا شبيه بالالتفات لأنه انتقل من الضمير الموضوع للجمع أو المعظم نفسه إلى الضمير الخاص بالمتكلم المفرد»[٧] وحكمة هذا الانتقال هنا أن الهدى لا يكون إلا منه وحده تعالى. فناسب الضمير الخاص كونه لا هادى إلا هو تعالى. فأعطى الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره الضمير الخاص الذي لا يحتمل غيره تعالى»[٨].

---

(١) البحر المحيط ١/١٧٠.
(٢) تفسير القرطبي ص ٢٨٠.
(٣) تفسير القرطبي ص ٢٨٠.
(٤) البحر المحيط ١/١٦٧.
(٥) تفسير القرطبي ص ٢٨٠.
(٦) البحر المحيط ١/١٦٩.
(٧) البحر المحيط ١/١٦٨.
(٨) البحر المحيط ١/١٦٨.

ومعنى القول : فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون : فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة . ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا[1] وقدم عدم الخوف على عدم الحزن لأن انتفاء الخوف فيما هو آت آكد من انتفاء الحزن على ما فات . ولذلك أبرزت جملته مصدرة بالنكرة التي هي أوغل في باب النفي ، وأبرزت الثانية مصدرة بالمعرفة في قوله : ولا هم يحزنون . وفي قوله ولا هم يحزنون إشارة إلى اختصاصهم بانتفاء الحزن وأن غيرهم يحزن[2] .

وبهذا يتبين أن كل عباد الله تعالى ، عليهم أن يتبعوا الرسول النبي الأمي الذي اصطفاه الله تعالى بأشرف الكتب السماوية وآخرها .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٢٨٠ .

(٢) البحر المحيط ١ / ١٧٠ .

﴿٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ

بعد أن أشارت الآية الكريمة السابقة إلى كون الذين يتبعون هدى الله تعالى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أشارت هذه الآية الكريمة إلى الذين كفروا وكذبوا بآياته جل وعلا التي آتاها الله تعالى أنبياءه ورسله . إن هؤلاء الكافرين هم أصحاب النار وهم خالدون فيها . ويفهم من حديث الآية عن الكافرين الذين يقابلون المؤمنين في الآية السابقة أن هؤلاء الكافرين يلحقهم الخوف والحزن ، كما يفهم أن المؤمنين المتقين الذين اتبعوا هدى الله تعالى هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون . « فكأنه حُذِف من الجملة الأولى شيء أثبت نظيره في الجملة الثانية . ومن الثانية شيء أثبت نظيره في الجملة الأولى »[1] .

---

(١) البحر المحيط ١/ ١٧٠ .

بنو إسرائيل

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ

إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام(١) لقب له(٢) ومعنى إسرائيل عبد الله . قال ابن عباس: إسر بالعبرانية هو عبد. وايل هو الله(٣) قال أرباب المعاني: ربط سبحانه وتعالى بنى إسرائيل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد ﷺ ودعاهم إلى ذكره فقال: أذكروني أذكركم ليكون نظر الأمم من النعمة إلى المنعم. ونظر أمة محمد ﷺ من المنعم إلى النعمة(٤) وايای فارهبون أي خافون(٥).

«كانت هاتان الطائفتان ، أعنى اليهود والنصارى أهل كتاب مظهرين اتباع الرسل والاقتداء بما جاء عن الله تعالى. وقد اندرج ذكرهم عموماً في قوله: «يا أيها الناس اعبدوا» فجرد ذكرهم هنا خصوصاً، إذ قد سبق الكلام مع المشركين والمنافقين وبقى الكلام مع اليهود والنصارى فتكلم معهم هنا(٦) إن الآية الكريمة يجيء فيها القول : « يا بني اسرائيل » وليس يا بني يعقوب ، لما في لفظ اسرائيل من أن معناه عبد الله أو صفوة الله وذلك على أحسن تفاسيره . فهزهم بالإضافة إليه فكأنه قيل: يا بني عبد الله أو يا بني صفوة الله فكان في ذلك تنبيه على أن يكونوا مثل أبيهم في الخير(٧). والذكر اسم مشترك . فالذكر بالقلب ضد النسيان . والذكر باللسان ضد الإنصات. وذكرت الشيء

---

(١) تفسير القرطبي ص ٢٨١ .
(٢) الكشاف ١/٢١٢ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٢٨١ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٢٨٢ وأنظر البحر المحيط ١/١٧٤ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٢٨٣ .
(٦) البحر المحيط ١/١٧٣ .
(٧) البحر المحيط ١/١٧٣ .

بلساني وقلبي ذكرا وأجعله منك على ذكر (بضم الذال) أي لا تنسه[1] فالمطلوب من بني إسرائيل أن يفطنوا لنعم الله تعالى وألا يغفلوا عن شكرها، وأن يمروها على ألسنتهم ويتدارسوها كيلا ينسوها، وأن يترجموا ذلك الذكر إلى حمد لله تعالى عليها في هيئة العمل الصالح الذى يريدون به وجه ربهم الأعلى. فبالشكر تدوم النعم «وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد»[2].

وفي هذه الأعمال الصالحة التي يريدون بها وجه الله تعالى يتمثل وفاؤهم بعهد الله تعالى الذي أخذه عليهم والذي يشمل جميع أوامره جل وعلا ونواهيه ووصاياه فيدخل في ذلك ذكر محمد ﷺ الذي في التوراة وغيرها[3] وحينما يكون الوفاء منهم بعهدهم فإنه يترتب عليه إنجاز ما وعدهم جل وعلا به عهداً على سبيل المقابلة أو إبرازاً لما تفضل به تعالى في صورة المشروط الملتزم به فتتوفر الدواعي على الايفاء بعهد الله[4].

وينبغي أن تمتلىء القلوب بالرهبة من الله تعالى فإن ذلك عاصم لها من أن تزيغ أو أن تطغى وحافز لها على تمثل النعم والقيام بواجب شكرها.

---

(١) تفسير القرطبي ص ٢٨٢.
(٢) سورة إبراهيم ٧.
(٣) أنظر تفسير القرطبي ص ٢٨٣.
(٤) أنظر البحر المحيط ١/١٧٥.

﴿٤١﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ

تستمر الآية الكريمة في إرشاد بني اسرائيل إلى الطريق الأقوم آمرةً لهم بكل خير ناهية لهم عن كل شر. وها هي ذى تأمرهم بأن يصدّقوا بما أنزل الله تعالى على محمد بن عبد الله ﷺ من قرآن مجيد مصدق للكتاب السماوي الذي لديهم وهو التوراة إذ أنه يدعو إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له. والمعروف أن التوراة ذاتها التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام فيها النص على نبوة محمد بن عبد الله ﷺ. وقد كان بنو اسرائيل، هم اتباع دين سماوى، واعتماداً على التوراة، على علم تام بقرب بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين وكانوا يستنصرون الله تعالى على الكافرين ببعث خاتم الأنبياء والمرسلين وقد جاء في سورة البقر[1] قوله تعالى: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» وجاء في سورة البينة[2] قوله تعالى: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة. رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة، فيها كتب قيمة. وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة. وما امروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة».

لقد كان المتوقع من بني اسرائيل أن يكونوا أول مؤمن من أهل الكتاب، بالقرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على محمد بن عبد الله ﷺ، وألا يكونوا أول كافر به. والعجيب أنهم كانوا أول كافر به. رغم نهيهم عن الكفر بالقرآن وبمحمد بن عبد الله ﷺ، ونهيهم عن أن يشتروا بآيات الله تعالى، وفيها أمرهم بالايمان بالقرآن الكريم والتصديق بمحمد ﷺ، ثمناً قليلاً، هو عبارة عن متاع الدنيا الزائل من مال وجاه وحسب ومنصب. إن كل متاع الدنيا إلى زوال وإن الآخرة لهي خير من الأولى فينبغي العمل في هذه الحياة من أجل الآخرة. وتنص الآية الكريمة على أمر بني إسرائيل بالتقوى. وها نحن أولاء نصادف سريعاً صفة التقوى التي تمثل الهدف السامي الذي ينبغي أن يحرص على الوصول إليه المؤمنون.

---

(١) الآية ٨٩. (٢) الآيات ١-٥.

﴿٤٢﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ

اللبس : الخلط . لبست عليه الأمر ألْبِسُه إذا مزجت بَيِّنَهُ بِمُشْكِلِه وحقه بباطله . قال الله تعالى : وللبسنا عليهم ما يلبسون[1] إن الآية الكريمة تنهى بني إسرائيل عن ارتكاب قبيحين . الأول : أن يخلطوا الحق الذي أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام يعني التوارة بباطلهم وهو التغيير والتبديل . وقد روى هذا المعنى عن ابن عباس[2] والثانى : أن يكتموا أمر النبي ﷺ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو العالية والسدى ومقاتل [3] وكتمانه أنهم كانوا يعلمون ذلك ويظهرون خلافه[4] .

وأنتم تعلمون جملة في موضع الحال ، أي أن محمداً عليه السلام حق . فكفرهم به كان كفر عناد . ولم يشهد تعالى لهم بعلم ، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل[5] .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٢٨٩ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٢٩١ .
(٣) البحر المحيط ١ / ١٨٠ .
(٤) البحر المحيط ١ / ١٨٠ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٢٩١ .

﴿٤٣﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ

في هذه الآية الكريمة أمر لبني اسرائيل بأن يقيموا الصلاة والمعروف أنها آكد العبادات البدنية وبأن يؤتوا الزكاة والمعروف أنها آكد العبادات المالية وأن يركعوا مع الراكعين محمد ﷺ وأصحابه. أي بأن يصلوها مع المصلين جماعة لا منفردين .

﴿٤٤﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

أتأمرون الناس بالبر . الهمزة للاستفهام وضعا. وشابها هنا التوبيخ والتقريع، لأن المعنى الانكار عليهم وتوبيخهم على أن يأمر الشخص بخير ويترك نفسه[1] والبر سعة المعروف والخير. ومنه البَرّ والبريّة للسّعة[2] والنسيان ضد الذكر وهو السهو الحادث بعد حصول العلم[3] ويكون بمعنى الترك. وهو المراد هنا[4] وعبر عن ترك فعلهم بالنسيان مبالغة في الترك فكأنه لا يجرى لهم على بال.[5] .

سبب النزول

قال ابن عباس : كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذى قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين : أثبت على الذي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل – يريدون محمداً ﷺ – فإن أمره حق. فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه. وعن ابن عباس أيضاً : كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم باتباع التوراة وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة محمد ﷺ . وقال ابن جريج: كان الأحبار يحضون على طاعة الله وكانوا يواقعون المعاصى[6] .

---

(١) البحر المحيط ١ / ١٨٢ .
(٢) البحر المحيط ١ / ١٨٢ .
(٣) البحر المحيط ١ / ١٨٢ وتفسير القرطبي ص ٣١٤ .
(٤) تفسير القرطبي ٣١٤ .
(٥) البحر المحيط ١ /١٨٣ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٣١١ .

في الآية الكريمة توبيخ لبني اسرائيل في المقام الأول على أمرهم الناس بالبر، بأن يتبعوا النبي ﷺ ويؤمنوا بالقرآن أو أمرهم أتباعهم بالتمسك بتعاليم التوراة ومن هذه التعاليم الايمان بمحمد ﷺ، بينما هم لا يؤمنون. بل إنهم ليتركون أنفسهم فلا يأمرونها بالخير، بل إنهم لينسون أنفسهم وكأن هذا الأمر لايعنيهم فلا يجرى لهم على بال. ويحدث منهم ذلك بينما هم يتلون التوراة التي تنهاهم عن ترك أنفسهم بل التي تأمرهم بالابتداء بأنفسهم. وإنما تورط اليهود في هذا التناقض لأنهم لم ينتفعوا بنعمة العقل التي امتن الله تعالى بها على الإنسان.

وإذا كان بنو إسرائيل هم الهدف الأول للتوبيخ والتقريع، فإن الآية الكريمة وراء ذلك تصح في حق كل من يأمر الآخرين بالبر وينسى نفسه. ومعروف أن التوبيخ في الآية الكريمة بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر[1] روي مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يؤتي بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يافلان مالك، ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى. قد كنت أمر بالمعروف ولا آتيه. وأنهى عن المنكر وآتيه[2] وقال أبو الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإن انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم[3]

وقال على كرم الله وجهه: قصم ظهري رجلان. عالم متهتك وجاهل متنسك[4]

---

(١) تفسير القرطبي ص ٣١٢.
(٢) تفسير القرطبي ص ٣١٢.
(٣) تفسير القرطبي ص ٣١٣.
(٤) البحر المحيط ١/ ١٨٤.

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ

استعان معناه طلب المعونة[1] والصبر : حبس النفس على المكروه[2] وكبيرة معناها ثقيلة شاقة[3] والخشوع : هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكونٌ وتواضع... قال سهل بن عبدالله لا يكون خاشعاً حتى تخشع كل شعرة على جسده لقول الله تبارك وتعالى : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم »[4] .

من العلماء من ذهب إلى كون الآية الكريمة تخاطب المسلمين . ومنهم من ذهب إلى كونها تخاطب بني إسرائيل . جاء في الجلالين القول : «وقيل : الخطاب لليهود » ويقول الزمخشري[5] « وإنها : الضمير للصلاة أو للاستعانة ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو اسرائيل ونهوا عنها » ويرجح أبو حيان أن الخطاب لبني اسرائيل يقول[6] : « والذي يظهر أن ذلك كله خطاب لبني اسرائيل لأن صرف الخطاب إلى غيرهم لغير موجب ثَمَّ يخرج عن نظم الفصاحة » .

ونحن من جانبنا نود أن ندلى بدلوناً ضمن الدلاء . ونمهد لذلك بالقول : إن المتدبر لهذه المجموعة من الآيات الكريمات التي ابتدأت بخطاب بني اسرائيل ابتداء من الآية الأربعين يتبين إن الخطاب كان خالصاً لبني اسرائيل في ثلاث آيات هي : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم واياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً واياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » ثم تأتي آيتان كريمتان يصح أن يتجه الخطاب فيهما إلى بني اسرائيل وإلى سواهم . وهاتان هما الآيتان الكريمتان « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » ، بل إنه يبدو والله أعلم أن الآية

---

(١) البحر المحيط ١/١٨٤ .
(٢) البحر المحيط ١/١٨٢ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٣١٩ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٣١٩ .
(٥) أنظر الكشاف ١/٢١٤ .
(٦) البحر المحيط ١/١٨٥ .

الكريمة الأولى التي تأمر بإقامة الصلاة وايتاء الزكاة وبالركوع مع الراكعين، يتوجه فيها الخطاب إلى المسلمين بأكثر مما يتجه إلى سواهم. علماً بأن الآية الكريمة التي توبخ الآمرين بالبر غيرهم الناسين أنفسهم تصح في حق بني إسرائيل وفي سواهم.

فإذا تحولنا إلى الآيتين الكريمتين التاليتين: «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين. الذين يظنون أنهم ملا قو ربهم وأنهم إليه راجعون تبين لنا – والله تعالى أعلم – أنها تخاطب المسلمين لله رب العالمين فهم المطلوب منهم في المقام الأول أن يستعينوا بالصبر وبالصلاة وهم في المقام الأول الخاشعون الذين يوقنون أنهم ملا قو ربهم وأنهم إليه راجعون.

ولو حاولنا أن نتلمس الحكمة في تحويل الخطاب عن بني اسرائيل إلى المؤمنين لتبينا أن هذا التحول فيه الاشعار بأن هؤلاء المؤمنين هم الذي يرجى منهم الخير الكثير وهم الأهل لأن ينتفعوا من هذه التوجيهات السماوية. ويعتبر ذلك مظهراً من مظاهر أوجه الهدى الذي يرشد إليه القرآن الكريم. وقد جاء في سورة الاسراء[1]: «إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليماً». فتوجيه الخطاب للمؤمنين الذين اصطفاهم الله تعالى بهذا الكتاب العزيز من أجل هدايتهم للطريقة التي هي أقوم يتعلق بهدف القرآن الكريم الرئيسي وهو الهداية إلى الصراط المستقيم.

وإن المتدبر للقرآن الكريم يتبين أن هذا التحول في الخطاب أو التحول في الحديث من أجل تحقيق الهداية أحد وسائل منهج القرآن الكريم تربوياً. فعلى سبيل المثال، في أثناء حديث سورة البقرة عن المرأة المطلقة يجيء الأمر بالمحافظة على الصلاة لأنها التي تنهى عن الفحشاء والمنكر وما أحوج الزوجين وهما في تلك المرحلة العصبية من حياتهما إلى الصلاة التي تنهاهما عن الفحشاء والمنكر والتي يستعان بها على كل الأمور. و «كان عليه

---

(١) الآيـة ٩، ١٠.

السلام إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة »[1] وفي سورة آل عمران أثناء الحديث عن غزوة أحد، يجيء نهي السورة الكريمة للمسلمين عن أكل الربا ضمن مجموعة من التوجيهات. وإنما كان التحول إلى هذا الأمر بالذات الذي يبدو للوهلة الأولى أنه بعيد عن المناسبة. لأن في هذا التحول إشعاراً بأن الإسلام كل لا يتجزأ، وأن الإيمان بالكتاب ينبغي أن يكون كاملاً، وأن المجتمع الكامل ينبغي أن يكون سليماً من كل الأمراض ومنها آفة الربا. قال تعالى[2] : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله تفلحون. واتقوا النار التي أعدت للكافرين » . وفي سورة يوسف عليه السلام حينما يطلب الفتيان في السجن من يوسف عليه السلام المسجون ظلماً أن يعبر رؤياها، دعاهما إلى الله تعالى بين يدي تعبير الرؤيا لأن الدعوة إلى الله تعالى هي رسالته الأساسية وليس تعبير الرؤى. وهكذا.

وفي ضوء هذاالبيان نستطيع أن نذهب إلى كون الآية الكريمة تخاطب المؤمنين في المقام الأول[3] ومن ثم هي تطلب منهم هذه المرة أن يستعينوا بالصبر والصلاة مع تبيين الحقيقة القائمة من كون الصلاة ثقيلة وشاقة على غير الخاشعين. وقد تقدم في الآية الكريمة ذكر الصبر لأنه العمود الفقري لكل العبادات. يقول أبو حيان[4] : « وقدم الصبر على الصلاة قيل لأن تأثير الصبر في إزالة ما لا ينبغي. وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي. والنفي مقدم على الإثبات » .

وحينما يكون الصبر عماد كل العبادات وفي مقدمتها الصلاة التي هي عماد الدين والتي هي عماد العبادات البدنية، وحينما تكون الصلاة كبيرة إلا على الخاشعين، فذلك معناه ضمناً صعوبة الصبر، الذي معناه في اللغة أساساً الحبس[5] وبالتالي فإن ثواب الصابرين جزيل. يقول القرطبي في هذا الشأن[6] : « وصف الله تعالى جزاء الأعمال

---

(١) تفسير القرطبي ص ٣١٧ .
(٢) سورة آل عمران ١٣٠ ، ١٣١ .
(٣) لاركوع في الصلاة عند بني إسرائيل.
(٤) البحر المحيط ١/ ١٨٤ .
(٥) أنظر مثلاً تفسير القرطبي ٣١٧ .
(٦) ص ٣١٨ .

وجعل لها نهاية وحدا فقال : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . وجعل جزاء الصدقة في سبيل الله فوق هذا فقال : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة » .. الآية وجعل أجر الصابرين بغير حساب ومدح أهله فقال : « إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب » .

﴿٤٦﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ

الظن هنا في قول الجمهور بمعنى اليقين ومنه قوله تعالى : «إني ظننت إني ملاق حسابيه» وقوله « وظنوا أنهم مواقعوها »(١) .

تبين الآية الكريمة بعض صفات الخاشعين فهم موقنون بأنهم ملاقو ربهم بعد الموت وأنهم إليه جل وعلا راجعون من أجل الحساب . ولهذا هم يعملون وفق ذلك العلم اليقيني .

وواضح أننا بصدد بعض نعوت المتقين .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٣٢٠ .

﴿٤٧﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ

أعيد نداء بني اسرائيل مرة ثانية على جهة التوكيد وليتنبهوا لسماع النعم التي سينصّ عليها السياق بعد ذلك نعمة نعمة. والنداء الأول للتنبيه على طاعة المنعم. والنداء الثاني للتنبيه على شكر النعم[1] فالمطلوب من بني اسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم وأن يذكروا تفضيله لهم على عالمي زمانهم. قاله الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم[2] وبما أن تفضيله جل وعلا لهم على عالمي زمانهم داخل في النعم التي ينبغي أن يذكروها، فنحن إذن في عطف التفضيل بصدد عطف الخاص على العام. وهو عطف يظل يدل على قيمة نعمة هذا التفضيل بين سائر النعم. ومن السوره التي جمعت في نسق بين هذه النعم سورة الجاثية. قال تعالى[3]: « ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين. وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» وسورة الدخان. قال تعالى[4]: «ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين. من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين. ولقد اخترناهم على علم على العالمين. وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين».

---

(١) أنظر البحر المحيط ١/١٨٩.

(٢) البحر المحيط ١/١٨٩.

(٣) سورة الجاثية ١٦، ١٧.

(٤) سورة الدخان ٣٠ – ٣٣.

﴿٤٨﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

سبب نزول هذه الآية الكريمة فيما ذكروا أن بني اسرائيل قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنا آباؤنا فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فدية[١] والمراد باليوم يوم القيامة. ومعنى لا تجزى نفس عن نفس شيئاً، أي لا تؤخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئاً. تقول: جزى عنى هذا الأمر يجزى كما تقول: قضى عنى[٢] والعدل (بفتح العين) الفداء. والعدل ما يساويه قيمة وقدراً وان لم يكن من جنسه وبكسر العين المساوي للجنس والجرم[٣].

ففي يوم القيامة لا تغنى نفس عن نفس شيئاً، ومعنى التنكير أن نفساً من الأنفس لا تجزى عن نفس منها شيئاً من الأشياء. وهو الإقناط الكلي القطّاع للمطامع[٤] ولا يقبل من هذه النفس شفاعة بعد عدم اغناء غيرها عنها شيئاً. والضمير في منها عائد على نفس المتأخرة لأنها أقرب مذكور، أي لا يقبل من النفس المستشفعة شفاعة شافع[٥] ولا يؤخذ من هذه النفس بعد ذلك فداء. وأخيراً هم لا ينصرون بحال من الأحوال «وترتيب هذه الجمل في غاية الفصاحة. وهي على حسب الواقع في الدنيا لأن المأخوذ بحق أما أن يؤدى عنه الحق فيخلص، أولاً يقضى عنه فيشفع فيه، أولاً يشفع فيه فيفدى، أولاً يفدى فيتعاون بالإخوان على تخليصه. فهذه مراتب يتلو بعضها بعضاً. فلهذا والله أعلم جاءت مرتّبةً في الذكر هكذا»[٦].

---

(١) تفسير القرطبي ص ٣٢٥.
(٢) تفسير القرطبي ص ٣٢٢.
(٣) البحر المحيط ١/١٨٧.
(٤) الكشاف ١/٢١٤.
(٥) البحر المحيط ١/١٩٠.
(٦) البحر المحيط ١/١٩٢.

﴿٤٩﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ

آل فرعون : قومه وأتباعه وأهل دينه[١] وفرعون علم لمن ملك العمالقة كما قيل : قيصر لمن ملك الروم وكسرى لمن ملك الفرس والنجاشي لمن ملك الحبشة وتُبَّع لمن ملك اليمن. وقال السهيلي : هو اسم لكل من ملك القبط ومصر[٢] وأصل آل أهل ولذلك يصغر بأهيل. فأبدلت هاؤه ألفا. وخص استعماله بأولى الخطر والشأن كالملوك وأشباههم[٣] والسَّوْم الدوام[٤] والسوم التكليف والإبلاء[٥] فمعنى يسومونكم يذيقونكم ويلزمونكم إيّاه[٦] وسوء العذاب أشقه وأصعبه[٧] وأشده. واستحياه وأحياه بمعنى واحد[٨] .

يقال ان بين دخول يوسف مصر ودخول موسى أكثر من أربعمائة سنة[٩] وأصل نشأة بنى اسرائيل بمصر نزول اسرائيل بها زمان ابنه يوسف بها على نبينا وعليهما السلام[١٠] .

في هذه الآية الكريمة ، يأمر رب العزة بني اسرائيل أن يذكروا نعمته إذ نجاهم جلّ وعلا من آل فرعون إذ يذيقونهم دائماً أشد العذاب . ويتجلى أشد العذاب هذا في أقوى صوره المتمثّلة في تذبيح آل فرعون بأمر فرعون أطفال بني اسرائيل الذكور وتركهم النساء أحياء . وبنص الآية الكريمة في ذبح الأبناء واستحياء النساء بلاء عظيم من الله تعالى لبني اسرائيل وامتحان عسير .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٣٢٥ .
(٢) البحر المحيط ١/١٩٣ .
(٣) الكشاف ١/٢١٥ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٣٢٧ .
(٥) البحر المحيط ١/١٩٣ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٣٢٧ .
(٧) البحر المحيط ١/١٩٣ .
(٨) البحر المحيط ١/١٨٨ .
(٩) البحر المحيط ١/١٩٣ .
(١٠) البحر المحيط ١/١٩٣ .

وفي ذكر الأبناء دليل على أن كل الذكور من بني اسرائيل يذبحهم آل فروعون بأمر فرعون الذي كان يخشى على ملكه أن يذهب عن طريق مولود في بني اسرائيل. وفي ذكر النساء دليل على ترك جنس الأناث أحياء ، وعلى حرص آل فرعون على تسخير نساء بني اسرائيل بالذات لكافة الأغراض ، لأن حصول النفع الكثير يأتي من الأنثى بعد أن تتجاوز مرحلة الطفولة. ولا يخفي أن فرعون وآله لم يكونوا يخشون جنس نساء بني اسرائيل ولهذا استحيوا أولئك الإناث ، اللاتي عبر عنهن بالنساء.

﴿٥٠﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ

فرقنا : فلقنا. وأصل الفرق الفصل[1] ولا زلنا بصدد «وإذ» التي صدرت بها مجموعة من الآيات في هذا القسم من السورة والمراد واذكروا يا بني اسرائيل إذ فلقنا بسببكم بحر القلزم حينما اتجهتم من مصر شرقاً بايحاء من الله تعالى لموسى عليه السلام فأتبعكم فرعون وجنوده بغيا وعدوا. وقد أنجاكم الله تعالى إذا أوحي إلى موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه فانفلق فكان فيه أثنا عشر طريقاً بعدد الأسباط. وحينما تبعكم فرعون وجنوده ودخلوا البحر أغرقهم الله تعالى وأنتم تنظرون إلى انطباق البحر عليهم وأنجاكم جل وعلا. ومن آيات الذكر الحكيم التي فصلت الحديث في هذه النعمة آيات سورة الشعراء[2] قال تعالى: «وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنّكم متّبعون. فأرسل فرعون في المدائن حاشرين. إنّ هؤلاء لشِرْذِمة قليلون. وإنّهم لنا لغائظون. وإنّا لجميع حاذرون. فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني اسرائيل. فأتبعوهم مشرقين. فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن معي ربي سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثم الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين. إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم».

(١) تفسير القرطبي ص ٣٣٠.
(٢) الآيات ٥٢ – ٦٨.

﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

في هاتين الآيتين الكريمتين يأمر رب العزة بني اسرائيل أن يذكروا إذ واعد جلّ وعلا موسى عليه السلام أربعين ليلة، وكان ذلك بعد أن جاوز بنو اسرائيل البحر وسألوا موسى عليه السلام أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فخرج إلى الطور في سبعين من خيار بني اسرائيل وصعدوا إلى الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة[1] ثم اتخذ بنو اسرائيل العجل، وهو أساساً ولده البقرة الصغيرة الذكر، إلهاً يعبدونه من دون الله تعالى وذلك حينما صاغ السامرى – وكان صائغاً – على شكل العجل إلهاً. وكان اتخاذهم العجل من بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى ميعاده جل وعلا. وليس ثمة ظلم أعظم من الاشراك مع الله تعالى غيره. وقد قال عز من قائل[2]: «إن الشرك لظلم عظيم» وقد تفضل رب العزة فعفا عن بني اسرائيل بأن قبل توبتهم. وما أعظم هذه النعمة من الله تعالي على بني اسرائيل بأن قبل توبتهم بعد عبادتهم العجل، وإن المنتظر في المقابل منهم أن يكون شكرهم لله تعالى كبيراً كفاء هذه النعمة العظيمة التي تفضل عز وجل بها عليهم. وقد أشارت سورة الأعراف إلى بعض جوانب هذه الحادثة قال تعالى[3]: « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين. ولما سُقِطَ في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين». على أن سورة طه[4] قد أفاضت الحديث في هذه الحادثة العظيمة.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ص ٣٣٧.
(٢) سورة لقمان ١٣.
(٣) سورة الإعراف الآية ١٤٨، ١٤٩.
(٤) الآيات ٨٣ – ٩٨.

﴿٥٣﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

إن النعمة التالية التي يأمر الله تعالى بني اسرائيل أن يذكروها هي المترتبة على مواعدة الله تعالى موسى عليه السلام أربعين ليلة. وهذه النعمة هي ايتاؤه الله تعالى الكتاب السماوي وهو التوراة ، وقد وصف هذا الكتاب عن طريق عطف الصفة أو التفسير فوصف بكونه فرقاناً يفرق بين الحق والباطل. وقد وصف هذا الكتاب في سورة الأنبياء بكونه فرقاناً. قال تعالى[1] : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءاً وذكراً للمتقين » . والمعروف أن أهم وظيفة للكتاب السماوى هي الهداية إلى الطريقة التي هي أقوم. ولذلك كان التعقيب في الآية الكريمة : « لعلكم تهتدون » .

والملاحظ ان هذه النعم تذكر وفق ترتيبها زمنياً .

---

(١) سورة الأنبياء ٤٨ .

﴿٥٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ

واعد رب العزة موسى عليه السلام أربعين ليلة أنزل عليه في أثنائها التوراة، وفي تلك الأثناء عبد بنو اسرائيل العجل. وهذه الآية الكريمة تبين العقاب الذى حل ببني اسرائيل قبل تفضله جل وعلا بقبول توبتهم. ومعنى الآية الكريمة واذكروا يا بني اسرائيل إذ قال موسى لقومه في طريقة يتجلى فيها التحنن يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم إذ أسأتم إليها باتخاذكم العجل إلهاً يعبد من دون الله تعالى، فتوبوا إلى مبدعكم وموجدكم من العدم، فاقتلوا أنفسكم، وذلك بأن يمكن من عبد منكم العجل، من لم يعبده منكم، من نفسه كي يقتله بأن يزهق روحه. إن هذا القتل خير لكم عند ربكم موجدكم من العدم ومبدعكم. وقد تاب الله تعالى على بني اسرائيل فقبل توبتهم مِنْ عبادة العجل، وعفا عنهم بأمرهم ان يكفوا عن قتل أنفسهم بالطريقة التي عرفنا « فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبةً للحي »[1] وكان التعقيب «إنه هو التواب الرحيم» متمشياً مع التوبة المطلوبة والمقبولة من التواب الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء فرحم بني اسرائيل من أن يبيدو بقتل أنفسهم.

والمتأمل للعقاب الأليم الذي أنزله الله تعالى ببني اسرائيل بين يدى قبوله جل وعلا توبتهم لعبادتهم العجل، لا يملك ألا أن يشكر لله تعالى نعمه وآلاءه وقد أكمل لنا دين الإسلام وأتم به النعمة علينا ورضيه لنا، وأن يشكره جل وعلا على نعمة التوبة التي ما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هي أفضل من التوبة[2].

---

(١) تفسير القرطبي ص ٣٤٢.

(٢) انظر هنا تفسير القرطبي ص ٣٤٣..

﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

حينما جاء موسى عليه السلام لميقات ربه وكلمه جل وعلا وأراد أن يرى الله جل وعلا لم تشأ إرادة الله تعالى ذلك لأنه عليه السلام لايقدر على رؤية نوره عزّ وجلّ. وقد أشار إلى ذلك قوله عز من قائل في سورة الأعراف[1] : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك. قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني. فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً. فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ». فكان منتهى ما تحقق لموسى عليه السلام ان كلمه ربه جل وعلا. فما موقف بني اسرائيل وقد جاءهم موسى عليه السلام بالتوراة من ربه بعد أن كلمه جل وعلا؟ قالوا كما جاء في الآية الكريمة يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. ومعنى جهرا عياناً. وانظر إلى الطريقة الفظة التي يخاطب بها بنو اسرائيل رسول الله تعالى إليهم : يا موسى. دون أن يقولوا يا رسول الله أو يا نبي الله أو ياكليم الله. وهذه الطريقة في خطاب موسى عليه السلام تذكرنا بنداء بعض الأعراب لمحمد بن عبدالله ﷺ بصريح الاسم ووصف سورة الحجرات لهؤلاء بأن أكثرهم لا يعقلون. وإن هذه الجراءة من بني اسرائيل على موسى عليه السلام كانت توطئة لجراءة أشد، ليس وراءها جراءة وذلك بإعلانهم أنهم لن يؤمنوا لموسى عليه السلام بما جاء به من ربه حتى يروا الله تعالى علانية. فأخذهم الله تعالى أخذ مقتدر بأن أرسل عليهم وسيلة من وسائل سخطه تجمع إلى كونها مسموعة كونها مبصرة، إنها الصاعقة. إنهم لم يكتفوا بسماع آيات الله تعالى يرتلها رسوله موسى عليه السلام إنما تجاوزوا أبعد الأبعاد بأن أصروا على أن يروا الله تعالى جهرة. إن وسيلة العذاب هذه هي الصاعقة التي يسمع صوتها الرهيب ويرى منها اللهيب. لقد رأي الظالمون الصاعقة وهي تحرقهم فماتوا.

---

(١) الآيـة ١٤٣ .

وإكراماً منه جل وعلا لموسى عليه السلام لأمر يريده جل وعلا، من على الأموات بالحياة مزة أخرى لعلهم يشكرون الله تعالى على هذه النعمة العظمى. ويلاحظ أن الآية الكريمة تستعمل جملة «بعث» مما هو دليل على عناية الآية الكريمة بحقيقة البعث بعد الموت التي لا يستطيع الكافرون فهمها وتقبلها. لقد كان إحياء موتى بني اسرائيل دليلاً عملياً على البعث يوم القيامة.

﴿٥٧﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

ظللنا عليكم الغمام : أي جعلناه عليكم كالظلة. والغمام جمع غمامة كسحاب جمع سحابه، وزناً ومعنى[1] والمن: قيل صمغة حلوة . وقيل عسل. وقيل شراب حلو. روى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج[2] والسلوى طير قيل هو السُّمانَي[3] .

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى بعض نعمه على بني اسرائيل. وذلك حينما كانوا في التيه، بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم وقالوا لموسى: فاذهب أنت وربك فقاتلا، فعوقبوا بالتيه أربعين سنة[4] ومع ذلك فقد لازمتهم رحمة الله تعالى. أما الغمام فمن أجل أن يقيم حر الشمس وأما المن والسلوى فهما من اشراف المأكول إذ جمعا بين الغذاء والدواء، بما في ذلك من الحلاوة التي في المن، والدسم الذي في السلوى. وهما مقمعا الحرارة ومثيرا القوة للبدن[5] وقيل لبني اسرائيل كلوا من طيبات ما رزقناكم، فأكلوا، وكان المطلوب منهم أن يرعوا النعمة فلم يرعوها وظلموا أنفسهم بكفرهم النعمة وقد قال عز من قائل[6] : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم» إنهم بكفرهم النعم لم يظلموه جل وعلا إنما ظلموا أنفسهم لأن وبال ظلمهم عاد عليهم .

---

(١) انظر تفسير القرطبي ص ٣٤٦ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ص ٣٤٦، ٣٤٧ والبحر المحيط ١/ ٢١٤ .

(٣) تفسير القرطبي ص ٣٤٧ .

(٤) فصلت ذلك سورة المائدة الآيات ٢٠-٢٦ .

(٥) البحر المحيط ١/ ٢١٦ .

(٦) سورة الانفال ٥٣ .

﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ، فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ

هذه القرية أي المدينة ، واختلف في تعيينها . فقال الجمهور هي بيت المقدس. وقيل : أريحا من بيت المقدس[1] وقيل غير ذلك . وقد رجح القول الأول لقوله في المائدة : ادخلوا الأرض المقدسة[2] وقولوا حطة : بالرفع قراءة الجمهور ، على اضمار مبتدأ ، أي مسألتنا حطة . أو يكون حكاية[3] والرجز : العذاب[4] .

بعد أن أزال الله تعالى عن بني إسرائيل غمة التيه[5] وهذه نعمة كبرى ، أباح لهم جل وعلا أن يدخلوا القرية ، وهذه نعمة أخرى . «وفي قوله : هذه القرية دليل على أنهم قاربوها وعاينوها لأن هذه إشارة لحاضر قريب[6] وسواء كانت هذه القرية هي بيت المقدس أو اريحا أو غيرهما ، فإنها في أرض الشام ، المكان الذي باركه الله دينياً بإرسال الرسل ودنيويا بكثرة الخيرات . ومما قيل لهم مرتبطاً بأمرهم دخول القرية أن يأكلوا منها حيث شاءوا أكلا واسعاً لا حجر فيه . وأن يدخلوا باب القرية منحنين ركوعاً كما قال ابن عباس[7] شاكرين لله تعالى متواضعين ، قائلين مسألتنا حطة ، أي أن تحط عنا خطايانا بفضل الله تعالى وَمنِه ، ووعدهم الله تعالى بأن يزيد المحسنين من فضله ، وليس لفضله جل وعلا نهاية .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٣٤٩ . وأنظر البحر المحيط ١/٢٢٠

(٢) البحر المحيط ١/٢٢١ .

(٣) تفسير القرطبي ص ٣٥٠ .

(٤) تفسير القرطبي ص ٣٥٥ .

(٥) تفسير القرطبي ص ٣٤٩ .

(٦) البحر المحيط ١/٢٢١ .

(٧) تفسير القرطبي ص ٣٥٠ .

فهل فعل بنو اسرائيل ما أمرهم الله تعالى به كي يغفر لهم ويزيد المحسن منهم إحساناً؟ لا لم يفعلوا والتفصيل في الآية الكريمة التالية. إن الذين ظلموا من بني اسرائيل بدلوا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزل الله تعالى من السماء عذاباً أليماً على الذين ظلموا منهم بسبب فسقهم وخروجهم من الصراط المستقيم. «روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : قيل لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على استاهم وقالوا حبة في شعرة . وأخرجه البخاري وقال: فبدلوا وقالوا حطة حبة في شعرة . في غير الصحيحين: حنطة في شعَرْ[1] وروي أن الباب جعل قصيراً ليدخلوه ركّعاً فدخلوه متوركين على أستاهم والله أعلم[2] .

ويلاحظ تكرير القول «الذين ظلموا» في الآية الكريمة دليلاً على عظم ظلمهم. كما يلاحظ تأخير لفظة رغدا بالقياس إلى الآية الكريمة الخامسة والثلاثين التي تقدمت فيها. وقد فطن أبو حيان[3] إلى التجانس الصوتي بين رغدا وسجدا « فكلوا منها حيث شئتم رغدا » و « ادخلوا الباب سجدا » .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٣٥٠ .

(٢) تفسير القرطبي ص ٣٥١ .

(٣) البحر المحيط ١/٢٢١ .

﴿٦٠﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

نحن الآن بصدد الإنعام التاسع[1] في سلسلة النعم التي امتن الله تعالى بها على بني اسرائيل، وهو المتعلق باستسقاء موسى عليه السلام في التيه[2] لقومه وقد تمكن منهم العطش. لقد طلب موسى عليه السلام السقيا من ربه جل وعلا، فأمره عز وجل أن يضرب بعصاه الحجر. قيل هو الذي فر بثوبه[3] فاللام بناء على ذلك للعهد والإشارة إلى حجر معلوم. وإما للجنس أي اضرب الشيء الذى يقال له الحجر[4] فانفجر بإرادة الله تعالى من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً، بعدد الاسباط، والأسباط في بني اسرائيل كالقبائل في العرب وهم ذرية الاثني عشر أولاد يعقوب عليه السلام. وكان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعدّاها[5] فقد علم أناس منهم مشربهم، أي موضع شربهم[6] وقيل لهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين. وقد قدم الأكل على الشرب لأن الماء يأتي عادة بعد تناول الطعام. ولأن الطعام، وهو المنّ والسلوى في حق بني اسرائيل قد جاءت الاشارة إليه من ذى قبل. فلذا قيل «كلوا واشربوا» وبما أنهم لم يتعبوا في سبيل الطعام والشراب، بل هو رزق من الله تعالى ساقه إليهم فقد قيل «من رزق الله». وبما أن النّعيم مظنة أن يبطر غير أولى الألباب، فقد نهت الآية الكريمة بني اسرائيل عن الافساد في الأرض. والعثى أشد الفساد[7] وكذلك العثو[8].

---

(١) البحر المحيط ١/٢٢٦.
(٢) البحر المحيط ١/٢٢٦.
(٣) الجلالين.
(٤) الكشاف ١/٢١٧، ٢١٨.
(٥) تفسير القرطبي ص ٣٥٩.
(٦) تفسير القرطبي ص ٣٥٩.
(٧) الكشاف ١/٢١٨ والعثى بضم العين وكسر الثاء وبكسر العين والثاء.
(٨) البحر المحيط ١/٢١٩ والعثو بضم العين والثاء.